الألم منفذ الشوف

بقلم: نسمة تليمة

حين نتألم نرى الكثير، فالألم قد يكون المنفذ الأول «للشوف»؛ تستمتع إلى صوت بداخلك يحدثك: «أنت هنا لترى فاصبر»، حين لم تكن تعلم ما هو قادم، لم تكن مستعدًّا له، تسير في الحياة هائمًا، ممتنًّا لفرحةٍ ما، قَدَّرَ الله وجودها في الطريق، لا تدرك أن الله قد يضعك في تجربة فتحملك إلى عوالم جديدة؛ تبحث فيها عن إجابات تُهدئ من روع عقلك المسكين، قد تكتفي إذا كنت من هؤلاء، ممن يجيد التعلق بالأشياء ويرتب الكون حول من أحب ولا غيره، حينها فقط امْتَنَّ للحالة قليلاً، لا تجزع، انظر جيدًا؛ علك ترى ما لايُرى، ما تستشعره بقلبك، ذاك الحضور الأكثر من بهي.. تلك الراحة والاطمئنان اللذين يسكنانك حين تمعن التفكير فيما حدث فتلفتك أرضية التواصل مع السماء..

لا تندهش؛ قد يكون بالفعل هناك تواصل إذا آمنت به، نحن فقط نحتاج أن نؤمن، والإيمان هو تلك الكلمة الفاعلة في مشهد الخوف.. فعل المطر مع الأرض البور.. الإيمان أن تصدق.. أن تسكن قلبَك سكينةُ اليقين دون الوصول إليه، أن تصعد تلك الدرجة التي لا يراها من حولك، لكنك تستشعرها بقلبك.. تؤمن أنها قطعًا قد وضعها القدير في طريقك..

كنت من هؤلاء، وقد لا أزال على بابه، واصلت الطَّرْقَ على أبواب كثيرة حين فقدت شخصًا عزيزًا، حتى وجدتني أبحث في القرآن عما يحدثني أنا، أنا تحديدًا- تلك السيدة الفاقدة لروحها، وغير العالمة بأي شيء سوى رحيل مفاجئ-.. رأيت حضوره في قلبي حين وقفت أمام مقام السيدة نفيسة وأنا أبكي حد النحيب وأحدثها عن راحلي، فأستمع إلى تلك الآية التي نزلت عليّ كما لو كانت بردًا وسلامًا ليتحول النحيب إلى دموع ممزوجة بابتسامة في حاجة للتصديق حين جاء قوله تعالى «حين جاء قوله تعالى «وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ» .. رأيت حضوره بقلبي حين هاتفتني تلك السيدة البعيدة عني والتي لم أقابلها، لكنها خففت عن روعي حين أخبرتني عبر الهاتف أنها أمام الروضة الشريفة بالمدينة المنورة وأنها ستترك هاتفها مفتوحًا لأحدث النبي، علني أطمئن في لحظة كنت في أشد الحاجة إلى الرحيل عن الحياة باحثة عن يد الله!

رأيت حضوره بقلبي حين جاءتني ابنتي ذات العامين من العمر لتقبل يدي ورأسي كما كان أبوها الراحل يفعل، وهي لا تدري أنني كنت أحدث السماء منذ قليل عن أي علامة تمنحني السلام!

رأيت حضوره بقلبي حين طلبت من روح فقيدي أن تتواصل معي وأنا على باب القبر، حين أخبرتها أنها ستلاقيني بما اعتادت على لقائي به في الدنيا، فما كان سوى أزهار جديدة نبتت في المكان الذي وضعت به نباتًا في السابق.

حين كنت ذاهبة إلى مقام بعيد، وحضرت في ذهني تلك الصديقة الغائبة منذ فترة، وصوت داخلي: «تذكريها في دعائك علها تلد الآن»، وفي الصباح علمت أنها رُزقت بابنتها الوحيدة.

أؤمن بتلك المقولة التي أخبرتنا أن الإنسان ما قال لشيء إنه أحبه وانفعل به إلا ظل أثر ذلك الانفعال إلى يوم القيامة، أؤمن كذلك أن معادلات السماء لا تحمل منطقًا يناسب عقولنا، كل يحتمل يقينًا جديدًا، كل الأشياء والرؤى والحقائق نسبية أمام قدرة الله تعالى، أمام تلك اللحظة التي تصافيه فيها، فيصافيك حق الصفاء حتى تدمع!

نستحضر حضوره في قلوبنا حين يصبح لكل شيء أوان، حين تمعن التفكير في الحدث، فتُدبّر من حكمته، وحين تصبح عاجزًا عن الحكي فتلجأ إليه.. حين نتعثر في كتاب يحمل مفاتيح حزنك، أو شخص يرشدنا إلى طريق آمن، حين نتعثر في قصص لا تشبهنا، ولو كنا بداخلها لما احتملناها، فيأتيك الصوت: قل الحمد لله وَارْضَ، فترضى، وترضى، وترضى...

نراه حين يضعنا في التجربة؛ يجعلنا نرى ضعفنا؛ علّه يسمح بشيء من فك طلاسم العالم لدينا، حين يذيقنا حلاوة حبلا يذوقها آخرون، وقد يأتون إلى الدنيا ويرحلون دون المرور بها، فيحتمل المشهد إنصافًا من نوع خاص، يُثري روحك ويشبعك!